اللغة العربية والعالم الحديث

شارل بيلا
جامعة السربون (باريس)

قيل إن العرب لم يتصوروا الزمان كما نتصوره نحن أبناء القرن العشرين، إلا أن المؤرخين المسلمين شعروا بفردانية الوقائع التاريخية، أو بعبارة أخرى علموا أن التاريخ لا يعود ولا يستعاد، بالرغم من ذلك كله نرى جزءا من تاريخ العرب، بل من تاريخ اللغة العربية، كأنه يتكرر في وقتنا هذا إذ أن الناطقين بالضاد تعترضهم – والأولى أن أقول: تعتريهم مشاكل شديدة التعقد شبيهة بما اضطر أجدادهم في صدر الإسلام إلى تذليله من الصعوبات فيما يخص اللغة ومقتضياتها.

فلقد دعيت إلى تبيين هذه المعضلات وتوضيحها أي إلى الحديث حول إمكانيات اللغة العربية وهل هي جديرة بأن تستعمل في التعليم العالي والتقني، فهذا باب من أبواب العلم بعيد المرام صعب الطرق دقيق الفتح لأن مكانة العربية وموقفها من العالم الحديث موضوع يبعث على المجادلة والمشاجرة ويضرم نار الأهواء، فيستوجب الخوض فيه بعض الاحتياطات والتحفظات.

فالمسألة التي طرحت على بساط البحث ترجع إلى التساؤل عن روح العربية – ولم أقل عبقرية العربية لأن العبقرية شيء آخر لا يمت إلى مرادنا بسبب، وعن المصطلحات المستعملة في التعليم الفني والعلمي أتوجد وتستطيع أن تظهر إلى حيز الوجود أم لا، فيمكنني أن أجيب عفويا على هذا السؤال قائلا إن جملة من المصطلحات غير موجودة إلى حد الآن، إلا أن أغلب ما يحتاج إليه منها ممكن الوضع جائز الاختراع، ومثل هذا التصريح من شأنه أن يقر العيون

ويثلج الصدور، غير أني بحاجة إلى ضرب مثل بسيط إفهاما للموافقين وإفحاما للمخالفين: هبوا أن حارة جديدة قد بنيت في مدينة من المدن الكبار، فلا غرو أن إحداثها يثير مشاكل شتى منها مشكلة النقليات العمومية مثلا، فما هي واجبات المسؤولين عند ذلك؟ فيجب عليهم أولا أن يدرسوا المعضلة ويتأملوا معطياتها، أي أن يقدروا الحوائج الجديدة ثم يعددوا ويحصلوا الوسائل الموجودة فإن لم يكف ما لديهم من سيارات النقل التمسوا مركبات أخرى على حسب ما يقتضيه عدد السكان وهلم جرا، إلا أن النقليات لها إدارة منظمة وموظفون متدربون يعرفون موارد الأمور ومصادرها ويتخذون التراتيب اللازمة، أما اللغة فليس لها ديوان حكومي ولا يخدمها موظفون يطبقون مبادئ معلومة ويسلكون مسالك محدودة، بل يخدمها أفراد ليس لهم من الحيلة إلا حبهم للغة ومن المنهاج إلا ما خطر ببالهم، فعدم المنهاج أو إتباع منهاج اختباري لا يفضي في القرن العشرين إلا إلى الفوضى[1]، وخلاصة القول ففي جميع الميادين ينبغي لمن أراد القيام بالحوائج الجديدة الناجمة عن تغير الأحوال أن يحصي هذه الحوائج ويستخدم جميع ما لديه من الوسائل لسد الثلمة الظاهرة: فإن نجح فله الحمد وإن أخفق فقد أبلغ العذر.

ومن شأن الإنسانية، من بدئها إلى آخر الأبد، أن تتغير أحوالها وتتطور فتتقدم وتترقى، ولولا ذلك لعشنا في الكهوف والغيران وغطينا أجسادنا بجلود الوحوش والسباع، غير أن الحضارة ليست بنصيب أمة من الأمم بل إنها نعمة عامة ينتفع بها من شاء ويتركها من شاء، أعني بذلك أن البشرية إن تقدمت جملة فإن الأمم المختلفة تناوبت على المدنية وتداولتها، فنشأت حضارات وكهلت ثم هرمت وماتت، فقامت مقامها حضارات أخرى صارت مصيرها وهكذا إلى يومنا هذا، ومن ناحية أخرى فمن المعلوم أن المدنيات المعاصرة كانت تتباين بقدر تباعد البلدان وتفاوت الأحوال الجغرافية والاقتصادية إلى غير ذلك من

(1) لقد كتبت هذه الأسطر قبل إنشاء مكتب التعريب الذي نشر معاجم مؤقتة لها أهمية كبرى في سبيل التعريب ووضع المصطلحات المحتاج إليها.

العوامل الفعالة، فلم تزل هذه العوامل تعمل عملها وتؤثر في شكل المدنيات، ولكن الدنيا بعد أن كانت فسيحة الأقطار أصبحت ضيقة الأنحاء متماسكة الأجزاء رغما عن النـزاع السياسي أو الديني الظاهر الذي يكاد يخفي بواطن الأمور، والحاصل أن جميع المدنيات تميل الآن – في بعض نواحيها على الأقل – إلى شيء من الائتلاف والتشابه لا يخلو من أن يثير مشاكل شتى فيما يتعلق بمظاهر الحياة عامة، وباللغات المتكلم بها في مختلف أقطار العالم خاصة.

ثم إن التاريخ الكوني يعلمنا أن التقدم كان في أغلب الأوقات بطيئا تدريجيا لا يستعجل الأجيال المتتالية في وضع الكلام المناسب للحضارة التي هو آلة لها وأداة، وكذلك كانت الحال في أوربا على عهد الثورة الصناعية التي اندلعت في القرن التاسع عشر، فمنذ ذلك الوقت، وخصوصا منذ الحرب العالمية الأولى ثم الثانية، تهاطلت علينا المخترعات الصناعية والمكتشفات العلمية حتى قيل إن الشيء يكاد يؤخذ قبل أن يوضع اسمه، وأن المدلول يسبق الدال عليه.

فلا يخفى على أحد أن الدول الغربية لها اليد البيضاء في أكثر هذه المخترعات والمكتشفات، ولحسن الحظ تكوَّن ولا يزال يتكوَّن كلام علمي مستمد من اللاتينية واليونانية اللتين أصبحتا معدنين لا ينبضان بعد أن كانتا أصلين أساسيين من أصول اللغات الغربية، ففي أغلب الأحوال يجوز أن تصير كلمة موضوعة في أمريكا مثلا فرنسية بغير تبديل إلا في النطق، ولكن الآفة التي لا مفر منها هي الاقتباس من اللغات الأجنبية في ميادين تستغني عن ذلك كالتجارة والرياضة، فالصحف الفرنسية وبعض الكتب مشحونة بألفاظ إنجليزية أو أمريكية لا حاجة إليها، ويشتكي أنصار الفرنسية هذا الاجتياح السلمي الذي أصبح خطرا على فصاحة اللسان[2]: يدل على ذلك كله على أن لغة عالمية كالفرنسية التي كانت إلى عهد قريب لغة الأوساط المثقفة في جميع أقطار

(2) حتى لقد نشر أخيرا أحد زملائي بجامعة السوربون الأستاذ (Étiemble) كتابا ممتعا عنوانه: "هل تتكلمون بالفرنجليزية" (نحتا من فرنسية وإنجليزية) ينتقد فيه الذين يكثرون من استعمال ألفاظ وتراكيب إنجليزية فيما يقولون ويكتبون.

أوربا، ولم تزل في بعض البلدان لغة الدبلوماسية لوضوحها وبلاغتها، لا تستطيع أن تتبع التقدم وتوافقه إلا بجهد جهيد، ولكنها لم تتأخر بعد، وعليها أن تقوم بالحوائج الناشئة كل يوم فقط، فما ظنكم باللغات التي كان يتكلم بها رجال انتقلوا فجأة من حضارة بانت بروحانيتها إلى مدينة تتميز بماديتها؟ فهذه هي المأساة ومنها نتج القلق الذي يشعر به الناطقون بالضاد، فليس داء بلا دواء ولن تموت فالأمل ممكن، بل إنه إجباري، ولو خامرني أدنى شك في حيوية العربية لما تناولت هذا الحديث.

فحالة العربية الآن غير حالة اللغات الغربية لأنها لغة عريقة في القدم بلغت أوجها في القرون الوسطى، ثم ركدت عصورا طوالا، وانتعشت في القرن الماضي لأسباب معروفة تغني استفاضتها عن إعادتها هنا، فتغيرت حينذاك الحضارة العربية تغيرا ملموسا، وأخذ سكان الشرق الأوسط من كل شيء غربي بطرف، حتى أنهم يفتقرون الآن إلى وضع عدد وافر من الألفاظ للدلالة على أمور موجودة في الغرب منذ أمد طويل، ويحتاجون، علاوة على ذلك، إلى تتبع الترقي السريع المستمر.

فإن نحن ألقينا نظرة إجمالية على ما تحتاج إليه اللغة العربية من الكلام رأينا أمسَّ الأشياء تنحصر فيما يلي:

أولا- العربية تحتاج إلى أمور وأشياء غير معهودة في المدينة العربية من ملابس ومآكل ومشارب وأدوات وغير ذلك، تحتاج إلى مصطلحات كالراديو والتلفون والنيلون وغيرها مما يدخل في نطاق الحياة اليومية، أو بعبارة أخرى، فاللغة بحاجة ماسة إلى ألفاظ دالة على مدلولات حسية.

ثانيا- الحاجة إلى الدلالة على مفاهيم غير معروفة من قبل متعلقة بالحياة الفكرية والإدارية والسياسية الخ.. فأهم المشاكل في هذا الميدان هو أن تتفق جميع البلدان العربية على " مصطلحات " مقبولة فلا يقال مثلا هنا " دراجة " وهناك " عجلة " للدلالة على (Bicycle).

ثالثا- الحاجة إلى المصطلحات العلمية والتقنية، فهذه المصطلحات هي التي تشغل أذهان الناطقين بالضاد فيتحيرون ويتساءلون عن سبب ما يظهر من تقصير في لسانهم وعن واجبهم في هذا المضمار إلى أمور من شأنها أن تشفي غليلهم.

ذلك أننا أن تأملنا لغة من اللغات، في وقت معين من تاريخنا، رأينا أنها تنقسم إلى قسمين رئيسيين:

فالقسم الأول ما يجب على إنسان مثقف غير متخصص أن يعرفه من المفردات ليعبر عن أفكاره ويؤدي دوره في المجتمع ويقرأ الكتب والجرائد، فيتراوح عدد هذه الألفاظ حسب اللغات والأشخاص من بضعة آلاف، ومن هذه الكتلة اللغوية تنبثق روح اللغة وتظهر خاصيتها ومميزاتها.

وأما القسم الثاني فهو عبارة عن ألسنة متباينة ضمن لغة واحدة، أعني بذلك كلام الأطباء مثلا والفلاسفة والنجارة والحدادة والمتخصصين في مختلف الصنائع والعلوم والفنون، فيعلم تلامذة صف الفلسفة في المدارس الثانوية أنه لا يمكنهم إدراك ما في كتبهم الفلسفية دون مراجعة معجم خاص يتضمن ألفاظا كثيرة لا توجد في قواميس اللغة، وهكذا أصبح من الميسور أن نميز في هذا القسم الثاني فرعين: فالفرع الأول هو ما يجب على جميع الناس وبالأحرى المثقفين منهم أن يعرفوه من المصطلحات الفنية والعلمية ليقال إنهم من الأدباء، لأن الأدب كما تعلمون هو الأخذ من كل شيء بطرف، وأما الفرع الثاني فهو خاص الخاص وقدس الأقداس إذ يشتمل على المصطلحات الواجبة معرفتها لنيل شهادات التعليم العالي.

أما القسم الأول والفرع الأول من القسم الثاني فلا بأس بهما فيما يخص العربية لأن الجهود التي بذلها الكتاب والعلماء والصحفيون والخبراء قد أفضت إلى نتائج مرضية رغما عن الاتفاق التام بين كثير من الألفاظ وما يناسبها في اللغات الأخرى، فلا أنكر هذه الأصالة ولا أستكرهها، غير أن المكروه هو عدم

الثبوت في المعنى لأن كلمة عربية ربما تدل على مدلولات ومفاهيم تنتقل بين حدين متباعدين، لقد حاولت في معجم صغير نشرته منذ أعوام أن أحدد معنى الكلمات المترادفة ظاهراً المتباينة باطنا كافتراض واحتمال وغيرهما، ثم رأيت أن الكُتاب لا يراعون تدريج المعاني وربما يضعون الكلام غير موضوعه بدون ورع ولا حرج، فعلى كل يبدو أن جملة اللغة وافرة غزيرة ومع ذلك يجدر بي أن أعترف بأن الثّلم لم تسد بعد تماما، وأن مفاهيم عديدة من الصعب التعبير عنها بعربية فصيحة، ولكنا إن قارنا بين حالة اللغة في أواخر القرن الماضي وبين حالتها الحاضرة، لاحظنا أنها تقدمت تقدّما باهرا فيما يخص الإعراب عن مظاهر الحياة الحديثة، وأني لا أعتقد أن الوسائل التي وضعتها الطبيعة تحت تصرف الناطقين بالضاد جديرة بأن توسع اللغة وتغنيها وترقيها وترفعها إلى مستوى عال سام.

أما الفرع الثاني فهو الذي يهمنا الآن لأن العربية متأخرة في هذا الميدان تأخرا نسبيا لا يجوز أن يعاب به العرب أنفسهم، ذلك أن التعليم التقني والعالي كان يتكفل به غالبا في الأقطار العربية أساتذة إنجليزيون أو فرنسيون وكان الطلاب يحسنون لغة غريبة فما زالوا لحسن الحظ يجيدونها، ولكن الأقطار المومى إليها قد نالت استقلالها التام بعد الحرب العالمية الثانية، فأرادت الحكومات أن تعرب التعليم في جميع درجاته ونواحيه دون استعداد كاف بل دون إعداد الأحوال الصالحة، فلقيت بغتة صعوبات شديدة ظنت في أوقات اليأس أنها لن تذلل أبدا، فهذه المصاعب – والحق يقال – مخيفة هائلة غير أن أهل اللغة لم يواجهوا المشاكل من وجوهها ولم يشمروا عن ساعد الجد والكد لحلها حتى ادعى بعضهم أنها محلولة فلا حاجة إذن إلى اعتبارها، فهذه حقيقة مرة من واجبي أن أبرزها.

وقد قلت أيضا إن التاريخ يتكرر أحيانا، فينبغي الآن أن أبدي رأيي في هذا الشأن: يعلم الحفاظ أن القرآن الكريم لا يتضمن كثيرا من المصطلحات الإسلامية التي يرجع فضل وضعها إلى علماء القرن الأول والقرن الثاني الذين

أجهدوا أنفسهم في إفراغ الألفاظ اللازمة في قوالب عربية حتى تصبح اللغة آلة صالحة للحضارة الإسلامية الناشئة إذ كان من الأكيد أن لهجة الحجاز ونَجْد كانت تقوم في الجاهلية بحوائج الشعراء والخطباء وسكان الوبر والمدر، ولكنها أضحت غير كافية بمجرد ما ارتقى العرب مدارج المدنية الرفيعة المتفننة التي نالوا بها مجدا خالدا.

فنشأت إلى جانب العلوم الإسلامية التي تتطلب مصطلحات كثيرة، علوم أخرى كالجغرافية والتاريخ فضلا عن الرياضيات والفلسفة وغيرهما من العلوم، فلما تسلَّم بنو العباس عرش الخلافة شجّعوا حركة الترجمة حتى أن لفيفا من المترجمين نقلوا من البهلوية واليونانية والسريانية عددا جمّا من الكتب الأدبية والتاريخية والعلمية والفلسفية، فنمت اللغة وتوسعت بفضل المترجمين ثم المتكلمين والفلاسفة الذين وضعوا أسس الكلام الفلسفي، ومن العجيب أن أكثر المصطلحات الإدارية والسياسية والفلسفية عربية الأصل – إن استثنينا أسماء النقود القديم اقتباسُها كالدرهم والدينار والفلس، وعددا يسيرا من الألفاظ الفلسفية نفسها مثلا – فترك هذه الملاحظات الخاطفة على سعة الجهود المستمرة التي بذلت لكي تعرب المفاهيم المأخوذة من مدنيات أخرى، ولسوء الحظ لم يعتن أحد بالأساليب والطرائق التي طبقت عفوا أو عن قصد في سبيل هذا التعريب.

ومع ذلك فإذا تصفحنا مثلا كتاب هيولي الطب في الحشائش والسموم لدياسقوريدوس الذي نقل إلى العربية في القرون الوسطى ونشر مؤخرا في تطوان (المغرب) رأينا أن المترجم لم يجد لعدد كثير من أسماء الحشائش والسموم ما يقابلها في اللغة العربية فأبقاها على حالها أي اقتصر على كتابتها بالحروف العربية، ومما يجدر بالملاحظة أن هذه أسماء كتابية صحفية لا رواج لها إلا في الأوساط المتخصصة من العطارين والصيادلة. فإننا سنصادف في مجرى بحثنا ما يشبه تمام الشبه بما قد مر ذكره، وبالضد فإن نظرنا إلى التحفة التي نشرها وترجمها إلى الفرنسية الدكتور رينو والأستاذ كولين وإدراجها في منشورات معهد

الدراسات العليا في الرباط بعنوان: «تحفة الأحباب في ماهية النبات والأعشاب» اضطررنا إلى الاعتراف بأن اللغة العربية كانت في القرون الوسطى تشتمل على كثير من أسماء النبات والأعشاب التي تنبتها الأرض حول البحر المتوسط، فمن اعتنى من العلماء المعاصرين بفحص لهذين الكتابين وأشباههما وبإقامة لائحة الأسماء المذكورة فيها؟

ولعلكم فهمتم من كل هذا الغرض الذي أرمي إليه والغاية التي أهدف إليها: فإن ما يعترضنا من مشاكل يمكن التماس حلول لها وليس ذلك بممكن فحسب بل ضروري إجباري إذا أردنا أن تدوم هذه اللغة الجميلة العزيزة وتحل محلها بين اللغات الكبرى، فالوسائل التي هي لدينا مختلفة وسأذكرها بدون ترتيب منطقي ليأخذها من شاء ويتركها من شاء:

أولا- رغما عما يزعم بعض الناطقين بالضاد فإن اللهجات العربية حية موجودة غير معدومة، فهي غنية واسعة تتضمن هنا وهناك ألفاظا عامية يومية الاستعمال لا توجد في اللغة الفصحى، منها خاصة مصطلحات أهل الصنائع، فلأي سبب لا يمكن الرجوع إليها عند الحاجة بشرط أن يتفق على معناها؟

ثانيا- رغما عن افتخار العرب بماضيهم المجيد لم يستغلوا ثروة قريبة المنال كثيرة المنافع ألا وهي اللغات الأجنبية التي أخذت من العربية في القرون الوسطى بألفاظ لم تزل حية إلى الآن، فلعل أهم هذه اللغات التركية التي ردت للعربية «جمهورية» و« لسان الحال» وغير ذلك وتستطيع أن ترد لها أيضا قسطا من المصطلحات الطبية والعلمية، ثم تليها الفارسية وكثيرا ما ألجأ إلى قاموس فارسي إذا ما صادفت كلمة عربية لا توجد في المعاجم العادية بالمعنى الذي كانت تستعمل به في القرون الوسطى، لأن أصحاب القواميس العربية لم يقيدوا المولدات، وأظن أن معاصرينا لم يكترثوا لذلك، كما أنهم لم ينتفعوا باللغات الغربية كالإسبانية والفرنسية وغيرهما، وإني أعتقد مثلا أن اللفظة المعروفة

(chéque) التي صارت في العربية « شيك» هي في الأصل « صك»، ولْنقس على ذلك.

ثالثا- وبالعكس من ذلك لا تتورع العربية عن الاقتباس، ومن المعلوم أن الدخيل فيها غير قليل إلا أن المسلمين أنفسهم يقرون بأن في القرآن ألفاظا غير عربية الأصل كمنبر وصراط وصلاة وغير ذلك مما ذكره النحويون، حتى ذهب السيوطي على أن في القرآن بضع كلمات بربرية.

ولكن مسألة الاقتباس من اللغات الأخرى مسألة دقيقة صعبة، فإن اللهجات، بما أنها حية، يمكنها أن تقبل جميع المفردات الأجنبية فتعرّبها تعريبا نسبيا حتى يقال قبطان (capitaine) على وزن فرمان، وجن النار (général) أو تبقيها على حالها كطموبيل (automobile) وأوتيل (hôtel)، أما الفصحى فلا تتمتع بحرية تامة وإن بدلت الكلمة الدخيلة لتفرغها في صيغة شوهتها وجعلتها غير مفهومة، فإن أخذتها اللغة كما هي لم يعرف من جهل اللغة الأصلية كيف يقرأها، وقال مثلا تلفون (بضمتين)، وزدْ على ذلك أنه من الصعب أن يجمع أهل اللغة على مثل هذا الدخيل إلا بعد طول المدة، إن لم تمت الكلمة في أثناء ذلك، فالأفضل، إذن، أن يقتصر على أخذ الألفاظ التي لها أشباه في اللغة فتنضم بسهولة تامة إلى السلاسل اللغوية، كقلم على وزن علم، وتلفزة على وزن فلسفة، وغاز على وزن نار.

وأمّا الألفاظ التي لا تُعرّب بسهولة فأعتقد أن الكف عنها أحسن والتماس كلمات عربية أصوب، فإذا تنافست كلمتان إحداهما عربية والأخرى دخيلة فالأفضل أن تستعمل الأولى بدل الثانية، فقد قرأت في محضر من محاضر الدرك السوري: «كلمناه هاتفيا» ومن العجيب أن أكثر الناس يقولون تلفونيا أو بالتلفون مفضلين كلمة غير عربية بدون جدوى ولا منفعة، فهذا مظهر من مظاهر الفوضى السائدة في الوقت الراهن، وبالعكس فإن تنافست كلمة دخيلة واضحة كَفِلْم وأخرى عربية ذات معان شتى مثل شريط، فالأولى أن تقدم الأولى على الأخرى.

فلا يجوز وأنا بصدد هذه الدراسة الوجيزة لتصريف الدخيل من الكلام إلا أن ألاحظ أن الخط العربي قلما يحتفظ بأصوات الكلمات المأخوذة، وعلى سبيل المثال فإني لا أدري كيف أكتب اسمي حينما أمضي كتابا أو مقالا بالعربية؟

فإن الاتفاق الذي ذكرته آنفا بين (فِلْم) والجهاز الصوتي العربي قليل الوجود نادر الحدوث، ولذلك قد تجاوز بعض الناس الحق إلى الباطل فاقترحوا استبدال الحروف اللاتينية بالأبجدية العربية، ولكني أعتقد أن مثل هذا المشروع مكتوب عليه الفشل، لأن العربية غير التركية، وأيقنت أن الخط العربي سيدوم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ومع ذلك لقد تأملت هذه القضية فرأيت أن تستعمل الحروف اللاتينية في أحوال معينة وأوقات محدودة معلومة ونواح خاصة من التعليم العالي، أي في كليات العلوم والصيدلة إذا ما طرق باب المركبات الكيماوية مثل: (methylaminoethanol) لأني أظن أنه ليس من الضروري أن يلتمس الأساتذة تعريب هذه المولّدات – بمعنى الكلمة الأصلي – الحوشية، فيكفي إذ ذاك أن يعرف الطلاب الخط اللاتيني، وبما أنهم مضطرون لأسباب أخرى إلى معرفة لغة أجنبية فليس في ذلك عظيم الضرر.

ومن جهة أخرى يعلم الجميع أن علماء النبات والحيوان يستعملون في العالم أجمع اسما ونعتا لاتينيين لكل جنس ونَوْع منه النبات والحيوان، فهذه الأسماء والنعوت مُجمع عليها، كما قلت في العالم كله والروس أنفسهم الذين يكتبون بخط خاص يذكرون لكل حيوان ونبات اسمه ونعته باللاتينية، ومع ذلك أرى بعض الناطقين بالضاد ينفردون وينفصلون عن سائر العالم فيريدون أن ينقلوا هذه المصطلحات من اللاتينية إلى العربية بدون فائدة.

ولكن لا أرى مانعا من تعريب بعض المصطلحات المستعملة في التعليم الثانوي، وأستحسن المنهاج الذي قد طبق منذ أمد طويل في سوريا حيث تستعمل أسماء مركبة من اللفظة العربية الأصيلة، والنهاية الفرنسية مثل كبريتور وكبريتات.

رابعا- أن اللغة العربية غنية جدا، ولكن اللغويين الذين ألفوا المعاجم على حسب نظريتهم اللغوية جمعوا ما استطاعوا جمعه من لغات القبائل وكلام الشعراء، ولم يلتفتوا إلى الألفاظ المولّدة التي قد يحتاج إليها في الوقت الحاضر، ولقد جعلتني مطالعة الكتب القديمة أعتقد أن تنقيبا دقيقا في مؤلفات القرون الوسطى سيجلب غلاّت وافرة ذات قيمة لا تقدر.

خامسا- أن اللغة العربية مرنة جدا بفضل الاشتقاق، فلها المصادر وأسماء الآلات والأمكنة والأزمنة وغير ذلك مما يسهّل وضع كلمات جديدة، فلا أستنكر مثلا «مكتاب» على وزن «منشار» للدلالة على الآلة الكاتبة، و«نحّال» لمربي النحل، والذي استشنعه هو ما يسمى بالنحت كمثل «تحتربه» (Underground) أو ما «مافوسجي» (ultraviolet) (ما فوق البنفسجي)، أما الألفاظ المركبة من «لا» وكلمة أخرى (لا مبالاة، لا شيء، لا نهائي) فلا بأس بها لأن هذا التركيب قديم لا يخالف روح العربية مخالفة منكرة.

سادسا- لأكثر المفردات القديمة معان شتى يجوز أن يستخرج منها معنى ملائم لما يحتاج إليه تمام الملاءمة، ولما يسمى التضمين دور هام في توسيع اللغة وإغنائها.

تلك بعض الوسائل الصالحة لسدّ الثلم الباقية في اللغة العربية، وقد استخدمت قليلا أو كثيرا منذ القرن الماضي، ولكنني أعتقد أنه من الواجب على الناطقين بالضاد أن يدركوا أن وقت المنهاج التجريبي قد مضى، وحان زمن المنهاج المنطقي العلمي، لأن الحالة الراهنة لا تفضي إلا إلى القلق والغصة ولا تنتج إلا الاضطراب والفقر، فإن عثر أحدهم على كلمة جيدة أو اخترعها من تلقاء نفسه لم يلبث منافسوه وحساده أن يستقبحوها فيحاولوا أن يروجوا مكانها كلمة أخرى أقل جودة وفصاحة وهلم جرا، فهكذا تتعدد العبارات الدالة على مدلول واحد، في حين أن عدة مفاهيم لا يمكن التعبير عنها.

فإن أراد المسؤولون تنمية العربية وتوسيع نطاقها وترقيتها إلى مستوى اللغات الكبرى، فعليهم أن يتخذوا مختلف التراتيب دون أن يتّكلوا على المجامع

العلمية رغم ما تبذله من الجهود في هذا المضمار، فإني لم أزل منذ ربع قرن موقنا بأن **اللغة العربية جديرة بأن تصبح لغة عالمية**، ولكني أتأسف على ضياع الوقت وعدم المنهاج واضطراب المساعي الفردية التي تذهب أحيانا إدراج الرياح، فمن المرغوب فيه أن تؤلف جامعة الدول العربية عدة لجان[3] مركبة من متخصّصين في علم من العلوم وصناعة من الصنائع وفن من الفنون، وتكلفها بتأليف قاموس يوزع في جميع المدارس من الابتدائية إلى العالية لكي تُوحّد اللغة ويزول الاختلاف.

*** مجلة "اللسان العربي": العدد الخامس (5)، من الصفحة 50 إلى 55. سنة النشر: 1967.**

(3) هذا اقتراح كان قبل أن يؤسس المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي.